الفصل الثاني

منهج ابن القيم

المبحث الأول: المنهج العام.

المبحث الثاني: المنهج الخاص.

المبحث الثالث: المنهج العلمي في زاد المعاد.

المطلب الأول: منهجة التفسيري.

المطلب الثاني: منهجه في الحديث.

المطلب الثالث: منهجه في الفقه والاصول.

المطلب الرابع: منهجه في السلوك والتزكية.

المبحث الرابع: مصادره في زاد المعاد.

المبحث الخامس: ملاحظات نقدية وتقويمية.

الفصل الثانى

منهـــج ابن القيم

بما أن موضوع دراستنا هو ابن القيم ورواياته التاريخية فى كتابة زاد المعاد، فقد رأيت من المناسب، أن أتعرض لمنهج ابن القيم تعرضاً غير مخل، دون الغوص فى غمار المنهج لكى تتكون لنا الفكرة الواضحة لهذا المنهج الذى سار عليه رحمة الله، وينبغى لنا أن نتعرض إلى منهج ابن القيم العام لندخل إلى منهجة الخاص الذى سار عليه فى المنهج العام.

المبحث الأول

المنهج العام

عندما نقرأ ترجمة ابن القيم نجدة قد وصف بأنه حنبلي كأسلافه الذين سبقوه في هذا المنهج، ولكن حظة من هذا الاتباع أنما ايده الدليل، لأنه كثيراً ما نراه قد نبذ التعصب وثار على التقليد، وندد بالمقلدين من أهل العلم، لاسيما الذين يعرفون الراجح والمرجوح من الأدلة ولذلك فإنه عالج هذه القضية في مناسبات كثيرة من كتبه، فبسط الحديث عن أحكام الاجتهاد والتقليد فيها.

وعلى الرغم من هذا كله فإنه رحمه الله لم يصل إلى التهور ولا إلى الازدراء بالعلماء الذين يقتدى بهم، لاسيما الأئمة الأربعة وأصحابهم، ولم يكن من أولئك الذين أشقاهم التعصب وأصمهم وأعمى أبصارهم فحادوا عن الأخذ من كتاب الله أو سنة نبيه عليه الصلاة والسلام، وتمسكوا برأي ربما يكون مخالفاً حيث كان يناشد الدليل مع احترامه للأئمة ـ فهو يحكي أقوال الأئمة ويستأنس بها ويختار ما يراه الصواب منها ولا يمنعه هذا من أن يخالف مذهبه (الحنبلي) في كثير من المسائل التي لم ير الحق فيها. وإنما رآها مجانبة للصواب. وهو الذي يقول: (وكثيراً ما ترد المسألة نعتقد فيها خلاف المذهب فلا يسعنا أن نفتي بخلاف ما نعتقده فنحكي المذهب الراجح ونرجحه، ونقول هذا هو الصواب وهو أولى أن يؤخذبه)[1] ومن المعلوم أن التقليد أمر يختلف كل الاختلاف عن معرفة المذهب فمعرفة المذهب مع الانقياد للدليل هو منهج أصحاب الأئمة، وهو مقام مدح لامقام ذم بخلاف التقليد بلا دليل، لا سيما وأن الدليل يوجب الأخذ به عند أهل العلم لأنه رد إلى الله ورسوله، وأن الإجماع خلفا وسلفا على وجوب الرد إلى النص (لا اجتهاد في مورد النص)، أما التقليد الأعمى فهو خارج عن زمرة العلماء، وأنه لمن الجلاء أن يسلك ابن القيم رحمه الله مسلك أهل الحديث البالغين درجة الاجتهاد! لأنه تميز بخصائص وسمات برزت من خلال مؤلفاته الجمة المختلفة ومن هذه المميزات، اعتماده على الأدلة من

(١) ابن القيم أعلام الموقعين ٤/ ١٧٧.

الكتاب والسنة وهى من أبرز خصائصه، فهو يستنبط الأحكام الشرعية من هذا المنهج السوى والمنبع الصافى. فهو يرى أنه من الأدب معه ﷺ أن لايستشكل قوله، بل يتشكل الآراء لقوله، ولايعارض نصه بقياس بل تهدر الأقيسة وتلغى لنصوصه، ولا يوقف قبول ما جاء به ﷺ على موافقة أحد، فكل هذا من قلة الأدب معه ﷺ وهو عين الجرأة[1].

وكذلك يتميز منهجة أنه يقدم أقوال الصحابة رضى الله عنهم على من سواهم، عند عدم وجود النص من كتاب الله أو سنة النبى ﷺ، وهى صفة بارزة أيضاً فى كتب ابن القيم رحمه الله تعالى، وقد بسطها فى كتبه وعدها أصلا واجباً لابد من الأخذ به والعمل بموجبة[2].

ثم من خصائص منهجة الاطراد والشمول، والتى هى واضحة فى كثير من مؤلفاته[3] حتى صرح بتلك السعة عند التعرض لبعض المسائل، وعد هذا الشمول بأنه منة من الله وفضله وهو يتحدث بهذه النعم[4]. قال (ومن الجود بالعلم أن السائل إذا سألك عن مسألة استقصيت له جوابها جوابا شافيا، لايكون جوابك له بقدر ما تدفع به الضرورة كما كان يكتب بعضهم فى جواب مسألة (نعم) أو (لا) مقتصرا عليها)[5] مما حدى بالبعض أن يتعرض لابن القيم بسبب توسعة وتكراره عند بحثة المسائل الكثيرة فى كتبة.

وقد تميز كذلك منهج ابن القيم بحرية الترجيح والاختيار لأنه يعتقد أنه طليق لا يقيده إلا الدليل وهو الذى يعتبره الحق، حيث يقول (ليحذر المفتى الذى يخاف مقامه بين يدى الله سبحانه أن يفتى السائل بمذهبه الذى يقلده، وهو يعلم أن مذهب غيره فى تلك المسالة أرجح من مذهبه وأصح دليلا، فتعلمه الرياسة على أن يقتحم الفتوى بما

(١) انظر كتب ابن القيم، أعلام الموقعين ٤/ ٢٥٠ ـ ٢٥٤ ومدارج السالكين ٣/ ٢٢٦ وبكر أبو زيد، فى كتابه ابن قيم الجوزية حياته وآثارة ٤٨ ـ ٤٩.

(٢) انظر ابن القيم، اعلام الموقعين ٤/ ١٢٣ ـ ١٥٦.

(٣) من ذلك كتابه اجتماع الجيوش الإسلامية والداء والدواء. والروح وغيرها.

(٤) انظر ابن القيم، فى كتابه الروح ص ٩٣ ط٣ سنة ١١٨٦ بمصر.

(٥) ابن القيم، مدارج السالكين ٢/ ٢٩٣.

يغلب على ظنه أن الصواب فى خلافه، فيكون خائنا لله ورسوله وللسائل وغاشا له والله لا يهدى كيد الخائنين، وحرم الجنة على من لقيه وهو غاش للاسلام وأهله، والدين النصيحة والغش مضاد للدين كمضادة الكذب للصدق والباطل للحق. وكثيرا ما ترد المسالة نعتقد فيها خلاف المذهب فلا يسعنا أن نفتى بخلاف ما نعتقده فنحكى المذهب الراجح ونرجحه، ونقول: هذا هو الصواب، وهو أولى أن يؤخذ به وبالله التوفيق)[1].

ومن مميزات منهجة بيان العبارة ووضوحها بالأسلوب الجذاب، الخالى من الجفاف والتعقيد، والغنى بالمعلومات البسيطة العبارة مما يكتسب منه القراء الجاذبية للقراءة والاستشهاد والمتابعة لتلك الأقوال، وقد قال الإمام الشوكانى عنه (وله من حسن التصرف مع العذوبة الزائدة وحسن السياق ما لايقدر عليه غالب المصنفين بحيث تعشق الافهام كلامه وتميل إليه الأذهان وتحبه القلوب)[2].

ويمتاز كذلك بحسن الترتيب والإبداع فى كتاباتة المنسقة والمنظمة مما حدى بالبعض من أهل العلم أن يعتبره قد فاق شيخه فى هذا، كما قال الشيخ النووى رحمه الله تعالى: (تمتاز مؤلفاتل ابن القيم بحسن الترتيب وجودة التأليف وهى تفوق فى هذا المجال مولفات شيخه ابن تيمية)[3].

ثم امتاز كذلك بتواضعه فى كثير من كتاباته فهو ظاهر فيها متصف بصنعة التواضع مبينا فى كثير من المواقف أن العصمة لرسول الله ﷺ وأن الناس يؤخذ منهم ويرد عليهم ولذلك نراه يناشد المطلع على كتبه أن يحكم بالرفق واللين لأنه بشر معرض للخطأ وهو مأجور فى كلتا الحالتين وهو القائل (والمرغوب إلى من يقف على هذا الكتاب أن يعذر صاحبه فإنهاألفه فى حال بعده عن وطنه وغيبته عن كتبه فما عسى أن يبلغ خاطره المكدود وسعيه المجهود مع بضاعته المزجاة التى حقيق بحاملها أن يقال فيه (تسمع بالمعيدى خير من أن تراه) وها هو قد نصب نفسه هدفا لسهام الراشقين، وغرضا لأسنة الطاعنين فلقارئه غنمة وعلى مؤلفة غرمة، وهذه بضاعته

(١) ابن القيم، اعلام الموقعين ٤/ ١١٧.

(٢) البدر الطالع ١/ ١٤١.

(٣) انظر النووى، فى الحافظ شيخ الإسلام ابن تيمية ط١ دار لقم الكويت سنة ١٣٩٥ ص ٣١٨.

تعرض عليك. ومـوليته تهدى إليك فإن صـادفت كفؤا كريما لها لن تعدم منه إمساكا بمعـروف أو تسريـحا باحـسـان. وإن صـــادفت غيـره فـالله تـعالـى المستـعان وعلـيه التكـلان. وقد رضى من مـهرها بدعـوة خالصة أن وافـقت قبولا واسـتحسانـا، وبرد جميـل إن كان حضهـا احتقارا واستـهجانا، والمـنصف يهب خـطأ المخطئ لاصـابته، وسيئاتـه لحسناته، فهـذه سنة الله فى عباده جزاء وثـوابا، ومن ذا الذى يكون قـوله كله سديدا وعلمه كله صوابا، وهل ذلك إلا للمـعصوم الذى لا ينطق عن الهوى، ونطقة وحى يوحى)[1] . وفضلا عن ذلـك كله فإن القارئ يجـد له فى مباحث ابن الـقيم ما يبعث الدهشة ويشد أصرة الإيمان، ليدلل علـى مواهبة الجمة النادرة المنبئة على ذوقه العلمى الـدقيق فلم يكن مجـرد كاتب يكتب ويؤلف بـل كان يفيض حيوية ويـشتعل حماسا متدفقـا بدواء داء المجتمع ليربط بين العلم والحـياة فلا عجب إذا رأى القارئ أن ابن القيم على مدى سبعة قرون مضت وهو محل إعجاب وروعة وتأثير عميق فى طبقات المجتمع كافة.

(١) انظر ابن القيم، اعلام الموقعين ١/ ١٧٥/ ط١ المطبعة الكبرى الأميرية مصر سنة ٣٢٢.

المبحث الثانى

المنهج الخاص

بما أن موضوع دراستنا عن ابن القيم وعن الروايات التاريخية فى زاده فينبغى أن ندرس منهجة فى كتابة الزاد الذى لم يقتصر فيه على الروايات التاريخية فحسب وإنما قد حوى علوما شتى أبرزت منهج ابن القيم فى علومه كافة. ففى التاريخ أننا لا نعدو الحقيقة إذا قلنا أنه ليس هناك فى الدنيا أنسان كامل تحدث عنه التاريخ وعن سيرته وحياته بكل جزئياتها، كما تحدث عن سيرة وحياة رسول الله محمد ﷺ، وأن من الكتب الوافية فى هذا الموضوع هو (زاد المعاد موضوع بحثنا) حيث استوعب فيه مؤلفه رحمه الله الشؤون العامة والخاصة من هدية عليه الصلاة والسلام، مستوفيا الحديث عن أطوار حياته، وما صاحبها من أحداث، وما لابسها من أمور يجدر بالمسلم أن يقف عندها ليأخذ منها الدروس والعبر وليسير ضمن منهجها ويتبين أمرها. ولم يقتصر عند هذا الأمر فى زاده وإنما حوى علوما شتى. وساعرض عرضا سريعا. منهجه فى مؤلفه زاد المعاد وماذا تحدث فيه ثم أذكر بعد ذلك المنهج العلمى من خلال هذا العرض.

- تحدث فيه عن فضائل الأمكنة وخواصها أمثال مكة والمدينة[1].
- تحدث عن فضائل الأزمنة أمثال ليلة القدر وعشر ذى الحجة وغيرها[2].
- تحدث عن فضائل الأعمال أمثال الإيمان وغيره[3].
- تحدث عن النسب النبوى ومبعثه عليه الصلاة والسلام[4].

---

(١) ابن القيم، زاد المعاد ١/ ٤٦.

(٢) المصدر نفسه ١/ ٥٤.

(٣) المصدر نفسه ١/ ٦٥.

(٤) المصدر نفسه ١/ ٧١، ١/ ٧٧.

ـ تحدث عن أسمائه عليه الصلاة والسلام وسرارية ومواليه وشعرائه ومؤذنيه وما إلى ذلك من سيرته الخاصة[1].

ـ تحدث عن هديه في العبادات مبتدأ بوضوئه وصلاته وما يتعلق بها من سنن[2].

ـ تحدث عن قراءته ﷺ وترتيله للقرآن وما يتعلق بالقراءة من أمور[3].

ـ ذكر صلاة الجمعة وما تعلق بها من أحكام[4].

ـ ذكر صلاة العيدين وما تعلق بها من أحكام[5].

ـ بين أحكام صلاة الكسوف [6] والاستسقاء[7] والجنازة وما يتعلق بالميت من أحكام [8] ثم تناول أحكام صلاة الخوف[9].

ـ تحدث عن الصدقة والزكاة وما يتعلق بها من أحكام[10].

ـ تحدث عن الصيام وما يتعلق به من هدى النبوة فيه وفرضيته[11].

ـ بين أحكام الحج والعمرة وكيف كان يفعل ﷺ[12].

ـ ذكر هدى النبي ﷺ في الأضحية والعقيقة والذبح [13].

ـ تحدث عن الأسماء والكنى متعرضا للمحظور منها [14].

---

(١) ابن القيم، زاد المعاد ١/ ٨٦ ـ ١٨٦.
(٢) المصدر نفسه ١/ ١٩١ ـ ٢٣٤.
(٣) المصدر نفسه ١/ ٢٣٧ ـ ٢٦٢.
(٤) ابن القيم١/ ٣٦٤ ـ ٤٣٩.
(٥) المصدر نفسه ١/ ٤٤١ ـ ٤٤٧.
(٦) المصدر نفسه ١/ ٤٥٠ ـ ٤٥٥.
(٧) ابن القيم ١/ ٤٥٦ ـ ٤٦٣.
(٨) المصدر نفسه ١/ ٤٦٤ ـ ٥٢٧.
(٩) المصدر نفسه ١/ ٥٢٩ ـ ٥٣٢.
(١٠) المصدر نفسه ٢/ ٥ ـ ٢٧.
(١١) المصدر نفسه ٢/ ٢٨ ـ ٨٩.
(١٢) المصدر نفسه ٢/ ٩٠ ـ ٣١١.
(١٣) المصدر نفسه ٢/ ٣١٢ ـ ٣٣٣.
(١٤) ابن القيم، زاد المعاد ٢/ ٣٣٤ ـ ٣٥١.

ـ روى الأخبار فى هدى النبى ﷺ فى الأذكار وما يتعلق بها من الأحكام[١].

ـ ذكر أحكام السلام والاستئذان وما ينبغى على المسلم أن يعرفه من هذا[٢].

ـ بين أحكام العطاس وما ينبغى للمسلم من غض الصوت فيه[٣].

ـ أورد هدى النبى ﷺ فى الاذكار وأنواعها [٤].

ـ تناول أخبار الجهاد مبينا فرضيته والأحكام المتعلقة فى ذلك [٥].

ـ ذكر أخبار الدعوة متناولا الأذى الذى لحق بالنبى ﷺ والسابقين إلى الإسلام[٦].

ـ بين أخبار الهجرة وما يتعلق بها من أمور[٧].

ـ تحدث عن اسلام بعض الصحابة ونقض الصحيفة وعام الحزن[٨].

ـ تحدث عن الإسراء والمعراج والأحكام المتعلقة فى ذلك [٩].

ـ تحدث عن تآمر المشركين للفتك بالدعوة ونبيها عليه الصلاة والسلام [١٠].

ـ روى أخبار أفعاله ﷺ عند وصوله المدينة بعد أن أذن له بالهجرة [١١].

ـ ذكر قصة تحويل القبلة والأذان[١٢].

ـ ذكر الأحكام المتعلقة بالقتال تمهيدا للغزوات والسرايا[١٣].

---

(١) المصدر نفسه ٢/ ٣٦٥ ـ ٤٠٥.
(٢) المصدر نفسه ٢/ ٤٠٦ ـ ٤٣٤.
(٣) المصدر نفسه ٢/ ٤٣٥ ـ ٤٤٢.
(٤) المصدر نفسه ٢/ ٤٤٣ ـ ٤٦٨.
(٥) ابن القيم ٣/ ٥ ـ ١٢.
(٦) المصدر نفسه ٣/ ١٢ ـ ٢٣.
(٧) ابن القيم، زاد المعاد ٣/ ٢٤ ـ ٢٨.
(٨) المصدر نفسه ٣/ ٢٩/ ٣٣.
(٩) المصدر نفسه ٣/ ٣٤ ـ ٤٢.
(١٠) المصدر نفسه ٣/ ٤٣ ـ ٤٩.
(١١) المصدر نفسه ٣/ ٥٨ ـ ٦٥.
(١٢) المصدر نفسه ٣/ ٦٦ ـ ٦٩.
(١٣) المصدر نفسه ٣/ ٧٣ ـ ١٢٦.

ـ أورد أخبار نقض العهود من اليهود وما جرى لهم مع رسول الله ﷺ[١].

ـ بين أحكام الصلح وهديه ﷺ فى الصلح مع أهل الكتاب ومع قريش[٢].

ـ ذكر الغزوات وما يتعلق بها من أحكام متناولا لها بالتفصيل لكل غزوة على حده[٣].

ـ ذكر السرايا التى أرسلها ﷺ وما يتعلق بالبعوث من أحكام[٤].

ـ ذكر الوفود من القبائل والأشخاص الذين قدموا على النبى ﷺ وسلم[٥].

ـ بين هديه ﷺ فى مكاتباته إلى الملوك وغيرهم[٦].

ـ بين الهدى النبوى فى العلاج من الأمراض القلبية والبدنية ومل يتعلق بالكثير من هذة الأمراض وعلاج كل منها[٧].

ـ ذكر هيئات النبى ﷺ وهدية فى مجال المحافظة على الصحة والنفس والجسد والروح[٨].

ـ تحدث عن الأدوية والأعذية التى جاءت على لسانه ﷺ وما فيها من المنافع والخواص[٩].

ـ تحدث عن قضائه ﷺ وأحكامه للفصل بين الناس متناولا الكثير منها وكل على حده. مبتدأ بالقتل[١٠]. ومنتهيا فى حكمة فى بيع الحصاة والغرر والملامسة والمنابذة[١١].

ـ ذكر آراء الفقهاء فى بعض البيوع والاستئجار كبيع الصوف على الظهر واستئجار الشاة[١٢].

---

(١) المصدر نفسه ٣/ ١٢٣ ـ ١٣٨.
(٢) المصدر نفسه ٣/ ١٤٠ ـ ١٤٦.
(٣) المصدر نفسه ٣/ ١٦٣ ـ ٥٠٨.
(٤) المصدر نفسه ٣/ ٥١٠ ـ ٥١٩.
(٥) المصدر نفسه ٥٩٥ ـ ٦٨٧.
(٦) المصدر نفسه ٣/ ٦٨٨ ـ ٦٩٧.
(٧) ابن القيم، زاد المعاد ٤/ ٥ ـ ٢١٦.
(٨) المصدر نفسه ٤/ ٢١٧ ـ ٢٨٢.
(٩) المصدر نفسه ٤/ ٢٨٣ ـ ٤١٥.
(١٠) المصدر نفسه ٥/ ٥.
(١١) بيع الحصاة أن يقول لصاحبة ارم هذه الحصاة فعلى أى ثوب وقعت فهو لك بكذا والغرر كيد الطير فى الهواء والملامسة بان يلمس كل منها ثوب صاحبة بغير تامل ـ والمنابذة أن ينبذ كل واحد منها توبه للآخر ولم ينظر واحد منها إلى ثوب صاحبة الآخر انظر مالك فى الموطأ ٢/ ٢٢٦ وانظر المصدر نفسه ٥/ ٨١٧ ـ ٨١٨.
(١٢) ابن القيم، زاد المعاد ٥/ ٨٢٣ ـ ٨٣٤.

المبحث الثالث

منهجة العلمى فى زاد المعاد

لاشك أن كتاب ابن القيم قد حوى علوما شتى، وتناول مواضيع متفرقة بينت منهجة الذى سار عليه ومن الممكن حصر هذه العلوم التى تضمنها هذا الكتاب إلى التفسير والحديث والفقة والتركية إضافة إلى الروايات التاريخية فيه.

وساتناول فى هذا المبحث منهجة فى كل ذلك وأرجئ المرويات التاريخية إلى فصل تام.

المطلب الأول

منهجة التفسيرى

يكاد ابن القيم يتفق مع علماء التفسير وعلوم القرآن على المناهج الأساسية لتفسير القرآن الكريم ألا وهى [1] تفسير القرآن بالقرآن والتى هى خير الطرق وأصوبها وأسلمها، والتى تعبر عن التأويل الصحيح للآية فما يعلم تاويلة إلا الله، ولأن المفسر إذا بدأ بذلك يحق أن يقول بملء فيه أن هذا هو المراد الحقيقى للآية.

ثم تفسير القرآن بالسنة لأنها هى التى شرحته ووضحته لقول الله تعالى ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2] وقد تعامل ابن القيم مع السنة تفسيرا وفقها وتاريخا ومن كل زواياها، وأشار إلى أن كتب السنة الصحيحة أفردت للتفسير بابا من الأبواب حتى يؤكد ظاهرة بيان السنة للقرآن بشهادة المصادر العلمية الموثوق بها والتى تتمثل فى كتب الحديث والسنن والجوامع. محذرا من التفسير بالأحاديث المعلولة والموضوعة والإسرائيليات والمنقولات الباطلة عامة [3].

(١) الزركشى، البرهان فى علوم القرآن ٢/ ١٧٥ وما بعدها. والسيوطى الاتقان ٢/ ٢٠٧.

(٢) سورة النحل الآية / ٤٤.

(٣) صبرى المتولى، منهج أهل السنة فى تفسير القرآن الكريم ص ١٥٢ در الثقافة والنشر والتوزيع/ القاهرة/ ١٩٨٦.

والطريق الثالث والمصدر الأساسى أيضا هو تفسير القرآن باقوال الصحابة رضوان الله عليهم وهو ما اهتم به ابن القيم لاسيما فى الأمور المتعلقة بهم والمنقولة الينا منهم كأسباب النزول وغيرها.

فهو حريص كل الحرص على ذكر هذه الروايات التفسيرية من الصحابة مؤكدا ما صح منها وتاركاً ما كان غير ذلك فى كثير من المواضع. ولا ريب أن تحرى الصحيح منها يزيد قيمة التفسير المأثور عن الصحابة، وكذلك فإن قول الصحابى فى سبب النزول وما شابهه ممن لا مجال للرأى فيه. فإنه يعد حكم المرفوع إلى النبى ﷺ ويرتقى إلى مرتبته وما عدا ذلك من أقوال الصحابة الاجتهادية فلاتعدو أن تكون خبرا موقوفا، قد لا يوجب الأخذ به، لا سيما فى حالة الاختلاف بين الصحابة[1].

أما المصدر الآخر والطريق الأساس الرابع والذى هو تفسير القرآن باقوال التابعين رضوان الله عليهم، فإن ابن القيم لايرى وجوب الاحتجاج بقول التابعى وإنما يؤخذ قوله على سبيل الاستئناس لا سيما إذا لم يكونوا قد اتفقوا على أمر من الأمور. فهو يرى عدم ضمان اجتماعهم واتفاقهم لانهم كثيرون جدا ومتفرقون ولايمكن حصرهم فكيف يحصر آراءهم. لكنه إذا ما عرض آراء البعض منهم فإنه فى الغالب ما يتعامل معهم باعتبارهم حجة مسلمة لا تقبل النقض.

وقد سار ابن القيم ضمن هذا المنهج فى كتابة زاد المعاد. فعند ذكره للجهاد مثلا استدل بقول الله تعالى ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾[2] بين أن الجهاد للكفار وكذلك للمنافقين مستدلا بقول الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[3] وبين أن الجهاد يكون مع الشيطان كذلك، لقول الله تعالى ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [4] وبين العداوة القائمة بقوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾[5].

---

(١) انظر هذه القضية عبدالوهاب خلاف فى علم أصول الفقة/ ٩٥ وما بعدها.

(٢) سورة الفرقان الآية ٥٢. (٣) سورة التوبة الآية ٧٣.

(٤) سورة فاطر الآية ٦. (٥) سورة الفرقان/ ٢٠.

وعند قوله تعالى ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾(١) فقد بين أن الله تعالى أخبر عن الكلام الذى صدر عن ظنهم الباطل هو قولهم الذى أخبر الله عنه بقولهم ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾(٢) وقولهم ﴿قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَ﴾(٣).

وقد فسر قوله الله تعالى ﴿وَأُوْلاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُن﴾(٤) بقوله عليه الصلاة والسلام لسبيعة الأسلمية عندما نفست بعد وفاة زوجها بليال فجاءت النبى ﷺ فاستاذنته أن تنكح فاذن لها فنكحت(٥) وفى رواية قال لها قد حللت فانكحى من شئت)(٦).

وقد بين سبب نزول الآية الكريمة ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾(٧) حين لقى أبو سفيان بعض المشركين يريدون المدينة فقال لهم هل لكم أن تبلغوا محمدا أنا قد جمعنا الكرة لنستاصله ونستاصل أصحابة فلما بلغهم قوله ﴿قَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾(٨).

وبين نزول الآية الكريمة ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾(٩) قال: (انصرف رسول الله ﷺ عام الحديبية فنزلت عليه سورة الفتح فيما بين مكة والمدينة فأعطاه الله عزوجل فيها خير)(١٠).

---

(١) سورة آل عمران الآية/ ١٥٤. (٢) سورة آل عمران الآية/ ١٥٤.
(٣) سورة آل عمران الآية / ١٥٤. (٤) سورة الطلاق الآية/ ٤.
(٥) ابن القيم، زاد المعاد/ ٥/ ٥٩٤ ـ ٥٩٥.
(٦) الأمام مالك فى الموطا ٢/ ٥٩٠.
(٧) سورة آل عمران الآية / ١٧٤.
(٨) ابن القيم زاد المعاد ٣/ ٢٤٢. وانظر ابن هشام ٢/ ١٢١/ وابن كثير ٣/ ٩٧.
(٩) سورة الفتح آية / ٢٠.
(١٠) ابن القيم زاد المعاد ٣/ ٣١٧ و ٣/ ٤١٩.

المطلب الثانى
منهجة فى الحديث

اعتمد ابن القيم على أخذه للحديث النبوى الشريف مستندا على الرواية والنقل فى ذلك، لأن أهل الرواية هم أعلم الناس ممن يقتدى بهم ولاشتغالهم بالمصطلح للتوثيق عن الخبر الصادر عن رسول الله ﷺ، ولهذا يوصف الخبر باتصال السند وارتفاعه وصحته ليعطى الحديث الصحيح، وقد نهج ابن القيم فى الأخذ بالحديث الصحيح غالبا لأنه يعتمد الصحاح كما مر بنا فى مصادره. ولكن لا يعنى هذا أنه اقتصر بالأخذ منهم أو على الحديث الصحيح فقط وأنما تناول الحسن كذلك وربما روى بعض الأحاديث التى وصلت إلى الضعف فى زاده وسأبين ذلك عند الحديث عن الملاحظات النقدية والتقويمية. لكنه حذر من الأخذ بالأحاديث الموضوعة التى وضعها الوضاع لمآرب عدة، حتى أقام الأدلة الدامغة على بيان الموضوعة منها مستندا إلى كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام، والحجة العقلية الدامغة إضافة إلى الشواهد الصحيحة على بطلان الموضوعة، معقبا أن الأقوال الموضوعة تلحق بالإساءة إلى من ينقلها فى الكتب وقد قال: (وليس العجب من جرأة مثل هذا الكذاب على الله، وإنما العجب ممن يدخل هذا الحديث فى كتب العلم من التفسير وغيره ولا يبين أمره)(١).

وسأذكر منهج ابن القيم فى زاده عند أخذه للحديث.

ـ يذكر أحيانا الحديث ويؤيده لقوته ويدافع عنه ويناقشه يبتغى بذلك الصواب.

ومن ذلك وهو يتحدث عن صلاة الجنازة فى المسجد، يرى أنه لم تكن صلاة الجنازة فى المسجد هى السنة المعتادة بل السنة أن النبى ﷺ يصلى خارج المسجد وربما كان يصلى أحيانا على الميت فى المسجد، كما صلى على سهيل بن بيضاء وأخيه فى المسجد(٢).

(١) ابن القيم. المنار/ ٢٩ وانظر د ـ صبرى المتولى منهج أهل السنة فى تفسير القرآن الكريم / ٨٩.

(٢) رواه مسلم (٩٧٣) فى الجنائز باب الصلاة على الجنائز فى المسجد.

والرواية هذه ذكرها مسلم فى صحيحه، ولكنه يبين أن هذا لم يكن من السنة دوما وإنما حصول ذلك لعدم المنع، والتشريع وإن كان خلاف الأولى. ثم يذكر الحديث الذى رواه أبو داود فى سننه (من صلى على جنازة فى المسجد فلا شىء له)[1] ليقوى ما يذهب إلى ويبدا بمناقشة ذلك فيقول: (وقد اختلف فى لفظ الحديث فقال الخطيب فى روايته لكتاب السنن: فى الأصل (فلا شىء عليه) وغيره يرويه (فلا شىء له) وقد رواه ابن ماجه فى سننه ولفظه (فليس له شىء) ولكن قد ضعف الإمام أحمد وغيره هذا الحديث فقال الإمام أحمد هو ما تفرد به صالح مولى التوأمة، وقال البيهقى هذا حديث يعد فى أفراد صالح، وصالح مختلف فى عدالته. ثم يقول ابن القيم وصالح ثقة فى نفسه، ونقل من قال عنه أنه ثقة وحجة ثم بين أنه خرف فى آخر حياته واختلط عليه. فمن أدركه بعد خرفه لم يأخذ منه، أما ابن أبى ذئب الذى روى حديث صلاة الجنازة فإنه سمع منه قبل أن يخرف، فلا يكون اختلاطه موجبا لرد ما حدث به قبل الاختلاط[2] ثم يذكر تاويل الحديث عند البعض من أهل العلم ويذكر الصواب أنه ما ذكره أولا[3].

ـ عند مناقشته لصلاة الوتر وأنها آخر الليل فاذا فاتت وصلى الصبح لم تقض ويستدل بذلك بالحديث الصحيح (أوتروا قبل أن تصبحوا)[4] ثم يناقش الحديث الذى رواه أبو داود وابن ماجة من حديث أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ قال: (من نام عن الوتر أو نسيه فليصله إذا أصبح أو ذكر) وعلى الرغم من صحة الحديث واسناده فإن ابن القيم رحمه الله. يقول: (ولكن لهذا الحديث عدة علل أحداها: أنه من رواية عبدالرحمن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف الثانى أن الصحيح فيه أنه مرسل له عن أبيه عن النبى ﷺ قال الترمذى هذه اصح، يعنى المرسل [5] والثالث: أن ابن ماجه حكى عن محمد بن يحيى بعد أن روى حديث أبى سعيد الصحيح أن النبى ﷺ

---

(١) رواه أبو داود (٣١٩١) فى الجنائز وابن ماجه (١٥١٧٩ واحمد ٢/ ٤٤٤ والبيهقى ٤/ ٥١/.

(٢) انظر ابن القيم، زاد المعاد ١/ ٥٠٠ ـ ٥٠١.

(٣) رواه مسلم (٧٥٤) وابن ماجه (١١٨٩).

(٤) رواه أبو داود (١٤٣١) وابن ماجه (١١٨٨) والترمذى (٤٦٥) وأحمد فى المسند ٣/ ٤١، ٤٤ والبيهقى ٢/ ٤٨٠ وصححه للحاكم ١/ ٣٠٢ ووافقه الذهبى فاسناده صحيح.

(٥) الترمذى/ ٤٦٦.

قال: (اوتروا قبل أن تصبحوا) قال فهذا الحديث دليل على أن حديث عبدالرحمن واه وهذا الكلام فيه نظر لأن ابن القيم اعل الحديث بسبب عبدالرحمن وهذا السند أورده الترمذى وابن ماجه أما السند الذى أورده أبو داود والحاكم البيهقى فهو صحيح لأنه لم يرد عندهم من الرواية الواهية. وإنما جاء من رواية أبى غسان عن محمد بن مطرف المدنى عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبى سعيد الخدرى وهذا إسناد صحيح[1].

ـ تناول علوم الحديث من حيث الرفع والوقف عند ذكره لحديث (لا صيام لمن لم يبيت الصيام من الليل)[2] وقد ذكر الاختلاف فى الحديث قائلا (وهذا الحديث مختلف فيه: هل هو من كلام النبى ﷺ أو من قول حفصة وعائشة[3] والوقف أصح من الرفع[4].

المطلب الثالث
منهجه الفقهى والأصولى

بما أن ابن القيم قد سار على نهج شيخه ابن تيمية فقد سارا جميعا ضمن منهج الإمام أحمد فابن القيم لم يفترض أمورا ولم يتخيل صورا ذهنية على نحو ما كان يحدث عند الفقهاء فى طور التعقيد وقد رفض التقليد وذمه لا سيما الذى لم يكن معه الدليل ولذلك نراه قد انتهج نهجا للأخذ بالمسائل الفقهية يختلف نوعا ما عن نهج شيخه ابن تيمية وعن نهج الإمام أحمد فأصول الإمام أحمد هى الكتاب والسنة وأقوال الصحابة والتابعين والمصالح المرسلة وسد الذرائع وقد زاد عليها الإمام ابن

(١) انظر ابن القيم، زاد المعاد بتحقيق شعيب الارنؤوط وعبدالقادر الارنؤوط ١/ ٣٢٤.
(٢) أخرجه أبو داود (٢٤٥٤) والنسائى ٤/ ١٩٦. وبن ماجه (١٧٠٠).
(٣) ابن القيم، زاد المعاد ٢/ ٧٣.
(٤) انظر البخارى فى تاريخة الصغير ص/ ٦٨. والدارقطنى ٢/ ١٧٢ والبيهقى ٤/ ٣. والمصدر نفسه ٢/ ٧٣ الهامش شعيب الارنووط.

تيمية الإجماع والقياس والاستصحاب وزاد عليها ابن القيم العرف [1] فهو يرى أن الحكم قد يتغير بتغير العرف وعادات الناس عندما لم يجد النص فيقول: (فيفتى فى كل بلد بحسب عرف أهله، ويفتى كل أحد بحسب عادته)[2] لأنه يدرك روح التشريع الإسلامى فى المرونة والمسايرة لروح العصر والتطور فيه، ولو جمدت الشريعة عند عرف خاص بمكان أو زمان معين لأصاب الناس الحرج والضيق، كيف وقد جاءت الشريعة لمصالح الناس ودرء مفاسدهم.

وأن منهج ابن القيم الفقهى بين الاتباع وعدم التقليد والنظر فى مصالح الناس، سبب له الاحراج فى كثير من المواقف وربما ما ترك له الحق من صديق، بل ضيع بسببه الرفيق فقد اشتهرت عنه فتاوى أوذى بسببها وسجن من أجلها ومنها: فتواه بجواز المسابقة بغير محلل[3] ومنها مسالة الطلاق الثلاث بلفظ واحد[4] ومنها انكاره شد الرحال إلى قبر الخليل[5].

وعند دراستنا لزاد المعاد نراه قد تعرض لكثير من المسائل الفقهية والأصولية التى برز فقهه فيها.

ـ يذكر أحيانا المسألة دون الخوض فى تفاصيلها بل يشير إليها وإلى بعض الأراء أن وجدت فيها كما فى مسألة الشهيد وما يفعل به بعد موته، فيذكر أنه لايغسل ويذكر رأى الإمام أحمد أنه نهى عن تغسيلهم وينزع عنهم الجلود والحديد ويدفنون فى ثيابهم [6].

ـ يخوض أحيانا فى المسالة الفقهية ويذكر آراء الفقهاء فى ذلك. كما فى مسألة صلاة الجمعة فهو يذكر أفضليتها وما ينبغى على المسلم أن يفعل فيها، ووقت

(١) انظر ابن القيم فى كتابة أعلام الموقعين والطرق الحكيمة فى سياسة الشريعة. وانظر صبرى المتولى منهج أهل السنة فى تفسير القرآن الكريم / ٢٩/ ٣٠.

(٢) ابن القيم، اعلام الموقعين ٣/ ١٧.

(٣) ألف فى هذا الكتاب الفروسية وكتابا آخر سماه (بيان الاستدلال على بطلان اشتراط محلل السباق والنضال، انظر ابن حجر، الدرر الكامنة ٤/ ٢٣.

(٤) ابن القيم دار المعاد ٤/ ٥١ ـ ٦٥ واغاثة اللهفان ١/ ٢٨٣ ـ ٣٢٨.

(٥) ابن رجب قبل طبقات الحنابلة ٤/ ٤٤٠.

(٦) ابن القيم، زاد لمعاد ١/ ٥٠٣.

صلاتها وما يقرأ فيها الإمام وهل يجوز السفر فيها لمن تلزمه الجمعة وكل ما يتلعق بالجمعة من مسائل ثم ينسب كل رأى إلى أهله من الفقهاء كالشافعى وأهل مذهبة كالنووى والرافعى وكأبى حنيفة والإمام أحمد والإمام مالك وغيرهم من الفقهاء يذكر آراءهم ويستطرد عندها [1].

ـ يبين أحيانا المسألة ويناقشها عند ذكر الأدلة والآراء. كما فى مسألة الوصال فى الصيام هل هى جائز أم محرم أم مكروه؟ فيروى الجواز عن عبدالله بن الزبير وغيره من الصحابة. ويروى التحريم عن مالك وأبى حنيفة والشافعى فى أحد قوليه ويذكر الكراهة فى قول الشافعى مستندا إلى اقوالب الصحابة فى هذه الكراهة وهل هى كراهة فى قول الشافعى مستندا إلى أقوال الصحابة فى هذه الكراهة وهل هى كراهة تحريم أم تنزيه. ثم يذكر القول الذى يراه راجحا وهو قول الإمام أحمد القاضى أن الوصال يجوز زمن سحر إلى سحر [2]، للدليل الذى رواه البخارى بذلك[3].

ـ يذكر احيانا فى المسأله الفقهية أصل الحديث ليربطه بأصل من أصول الفقه. كما بين فى مسألة صلاة الجمعة أن خروج الإمام يمنع الصلاة وخطبته تمنع الكلام. فالمانع من الصلاة خروج الإمام لا انتصاف النهار، مستشهدا بحديث أبى قتادة عن النبى ﷺ أنه كره الصلاة نصف النهار إلا يوم الجمعة [4] فيقوى ابن القيم هذا الشاهد بشواهد كثيرة عقلا ونقلا فيقول (وأيضا فإن الناس يكونون فى المسجد تحت السقوف، ولا يشعرن بوقت الزوال، والرجل يكون متشاغلا بالصلاة لايدرى بوقت الزوال، ولا يمكنه أن يخرج، ويتخطى رقاب الناس وينظر إلى الشمس ويرجع ولا يشرع له ذلك.

ثم يقول (وحديث أبى قتادة هذا قال أبو داود: هو مرسل لأن أبا الخليل لم يسمع

---

(١) المصدر نفسه ١/ ٣٧٥ ـ ٤٤٠.

(٢) ابن القيم، زاد العاد ٢/ ٣٥ ـ ٣٨.

(٣) لقوله عليه الصلاة والسلام (لاتواصلوا فإياكم رد أن يوصل فليواصل إلى السحر ٩ انظر البخارى ٤/ ١٨١.

(٤) رواه أبو داود (١٠٨٣) فى الصلاة.

من أبى قتادة، والمرسل إذا اتصل به عمل وعضده قياس، أو قول صحابى أو كان مرسله معروفا باختيار الشيوخ ورغبته عن الرواية عن الضعفاء والمتروكين ونحو ذلك مما يقتضى قوته، عمل به وأيضا فقد عضده شواهد أخر [1].

- بين من خلال عرضه للمسائل الفقهية، بعض المسائل الأصولية. فعند تعرضة لبعض الأدوية والعلاجات بين فائدة التمر ذاكرا بذلك حديثا رواه البخارى عن النبى ﷺ أنه قال (من أكل سبع تمرات مما بين لابتيها [2] حين يصبح لم يضره سم حتى يمسى) [3].

ثم يقول وهذا الحديث من الخطاب الذى أريد به الخاص كأهل المدينة ومن جاورهم [4].

- ذكر مسألة سد الذرائع. عند حديثة عن الغيل [5] حيث يبين النصوص التى تحث على عدم فعل ذلك [6]، ثم يقول: (ولهذا كان عادة العرب أن يسترضعوا لأولادهم غير أمهاتهم والمنع منه غايته أن يكون من باب سد الذرائع التى قد تفضى إلى الإضرار بالولد.

ويختم الكلام بقوله: - وقاعدة سد الذرائع إذا عارضه مصلحة راجحة قدمت عليه [7].

---

(١) ابن القيم زاد المعاد ١/ ٣٧٩.

(٢) أى ما يحيط بجانبيه (أى المدينة) من الحجارة السود البركانية.

(٣) أخرجه البخارى ٩/ ٤٩٣ فى الأطعمة ومسلم (٢٠٤٧) فى الأشربة باب فضل ثمر المدينة.

(٤) ابن القيم، زاد المعاد ٤/ ٩٨.

(٥) الغيل أن يطأ الرجل زوجه المرضعة.

(٦) انظر مسلم فى صحيحة (١٤٤٢) فى النكاح باب جواز الغيلة ومالك ٢/ ٦٠٨ وأبو داود (٣٨٨١) وأحمد ٦/ ٤٥٣و٤٥٧ و ٤٥٨).

(٧) ابن القيم زاد المعاد ٥/ ١٤٨.

المطلب الرابع
منهجة فى السلوك والتزكية

أن منهج ابن القيم فى العقيدة هو منهج السلف الذى سار عليه شيخه ابن تيمية ومن قبله الإمام أحمد إمام أهل السنة والجماعة. وأن الاتجاه الصوفى له تعلق كبير فى العقيدة لأنه يسلط الضوء على القضية الروحية التى لها مساس كبير فى العقيدة.

والاتجاه الصوفى هو الجانب الذى توسع به ابن القيم أكثر من شيخة ابن تيمية والتصوف يمثل ظاهرة فرضت نفسها على المفكرين والباحثين مما حدى بابن القيم أن يتعامل معه التعامل الصحيح المنضبط، لاسيما وأن الوقت الذى عاش فيه كان التصوف صافيا منضبطا بكتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام تمسكت به جماعة اثرت الأخرة الباقية على الحياة الدنيا الفانية وزهدوا فيها وجلعوها لجة واتخذوا صالح الأعمال فيها سفنا فارست بهم إلى بر النجاة فكان ابن القيم يتفق معهم لاسيما فى مسائل العبودية والزهد والتفرغ للخالق العظيم، فهو يذكر ائمتهم بخير فيقول: (كلام أئمة الطريق على هذا المنهاج كسهل بن عبد الله التسترى، وأبى طالب المكى، والجنيد بن محمد، وأبى عثمان النيسابورى ومن هم أرفع من هؤلاء درجة مثل أبى سليمان الدارانى، وعون بن عبدالله الذى كان يقال له حكيم هذه الأمة واضرابهما، فانهم تكلمو على أعمال القلوب، وعلى الأحوال كلاما مفصلا جامعا مبينا مطلقا من غير ترتيب، ولاحصر للمقامات بعدد معلوم، فإنهم كانوا أجل من هذا، وهمهم أعلى وأشرف، أنما هم حائمون على اقتباس الحكمة والمعرفة وطهارة القلوب، وزكاة النفوس وتصيحح المعاملة، ولهذا كلامهم قليل. فيه البركة وكلام المتاخرين كثير طويل قليل البركة)[1].

وأن موقف ابن القيم من الاتجاه الصوفى إنما هو موقف يتسم بالحرية والاجتهاد والأصالة، موقف يجمع بين التمسك والتسامح الواعى الحذر [2] الذى يكشف

(١) ابن القيم، مدارج السالكين ١/ ١٤٩.

(٢) صبرى المتولى منهج أهل السنة ١٠٨ ـ ١٠٩.

حقائق الأفكار والنظريات المرفوضة عند أهل السنة وخاصة نظريتى الحلول والاتحاد ونظريات الفلاسفة الالهيين والطبيعيين من قبل، وهو فى هذا يتفق مع شيخه ابن تيمية ومع أهل العلم جميعا من أهل السنة والجماعة.

وقد بين ابن القيم فى زاد المعاد كثيرا من العبارات الدالة على التزكية والزهد والسلوك الصحيح، فعند بيانه لقول الله تعالى ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾(١).

ـ يبين أسباب شرح الصدر ويعد منها الانابة إلى الله تعالى ومحبته بكل القلب والإقبال عليه والتنعم بعبادته، ثم يقول: (فلا شىء اشرح لصدر العبد من ذلك حتى أنه ليقول أحيانا إن كنت فى الجنة فى مثل هذه الحالة فإنى إذاً فى عيش طيب). ثم يقول (وتعلق القلب بغيره والغفلة عن ذكره ومحبة سواه، فإن من أحب شيئاً غير الله عذب به، وسجن قلبه فى محبة ذلك الغير، فما فى الأرض أشقى منه ولا أكسف بالا ولا انكد عيشا ولا أتعب قلبا، فهما محبتان محبة هى جنة الدنيا وسرور النفس ولذة القلب ونعيم الروح وغذاؤها ودواؤها، بل حياتها وقرة عينها وهى محبة الله وحده بكل القلب وانجذاب قوى الميل والإرادة والمحبة كلها إليه ومحبة هى عذاب الروح وغم النفس وسجن القلب وضيق الصدر وهى سبب الألم والنكد والعناء وهى محبة ما سواه سبحانه، (٢) وأمثال هذا قد تحدث عنه ابن القيم فى زاده(٣).

---

(١) سورة الأنعام الآية / ١٢٥.

(٢) ابن القيم زاد المعاد ٢/ ٢٥.

(٣) المصدر نفسه ٣/ ٤٢٦ ـ ٤٢٨.

المبحث الرابع

مصادره فى زاد المعاد

بالرغم من أن ابن القيم رحمه الله قد كتب زاده هذا، وهو فى طريق سفره من حل وترحال، وهذا يحتم عليه أن يكون من الصعوبة بمكان أن يطلع على الكثير من مصادره، ولكن سعته العلمية يسرت له الكتاب، فكان يكتب غالبا مما استجمعه فى صدره وبما يفتح الله عليه.

ولابد من التعرض لمعرفة هذه المصادر التى استشهد بها، وسأذكر الأهم ثم المهم عنده مبتدئاً بمصادره التاريخية وكتب السنة ثم المصادر الأخرى.

- ابن إسحاق(١).
- ابن هشام فى السيرة النبوية(٢).
- ابن سعد صاحب الطبقات(٣).
- الواقدى(٤).
- ابن كثير(٥).
- أبو نعيم فى الحلية(٦).
- ابن سيد الناس فى عيون الأثر(٧).
- البخارى فى التاريخ(٨).

---

(١) ابن القيم زاد المعاد ٣/ ٥٣٤ و٣/ ٥٣٨ و٣/ ٤٠٩.
(٢) المصدر نفسه ٣/ ٥٤ و٣/ ٦٠ وابن هشام صاحب السيرة النبوية طبعت عدة طبعات.
(٣) المصدر نفسه ٣/ ٥٤ و٣/ ٥٣٨ و٣/ ٣٨٦ و٣/ ٤٩٦.
(٤) المصدر نفسه ٣/ ٤٣ و٣/ ٢٨٤ و٣/ ٣٧٨.
(٥) المصدر نفسه ٣/ ٥٧. (٦) المصدر نفسه ٣/ ٢٦٧ و٤/ ٢٩.
(٧) المصدر نفسه ٣/ ٣٨٩. (٨) المصدر نفسه ٤/ ٨٨ و٥/ ٣٩.

ـ البيهقى فى الدلالة[١].

ـ ابن عبدالبر[٢].

ـ أبو الأسود فى مغازيه[٣].

ـ وأما مصادر السنة فمنها:

ـ البخارى فى صحيحه[٤].

ـ البخارى فى صحيحه[٥].

ـ مسلم فى صحيحه[٦].

ـ أحمد فى مسنده[٧].

ـ أبو داود فى سننه[٨].

ـ الترمذى فى سننه[٩] وجامعه[١٠].

ـ ابن ماجه فى السنن[١١].

ـ عبدالرزاق فى المصنف[١٢].

ـ مالك فى الموطأ[١٣].

ـ النسائى فى سننه[١٤].

---

(١) المصدر نفسه ٣/ ٤١ و٥/ ٧٣١. (٢) ابن القيم زاد المعاد ٣/ ٣١.

(٣) المصدر نفسه ٣/ ٥٤٥.

(٤) المصدر نفسه ٢/ ١٤٦ و٢/ ٤٧ و٢/ ٤٥٢ و٥/ ١٨٧ و٥/ ٦٩٤ و٥/ ٧٤٦ و٥/ ٧٩٩ و٥/ ٧١٣.

(٥) ابن القيم، زاد المعاد ٢/ ١٤٦ و٢/ ٤٧ و٢/ ٤٥٢ و٥/ ١٨٧ و٥/ ٦٩٤ و٥/ ٧٤٦ و٥/ ٧٩٩ و٥/ ٧١٣.

(٦) المصدر نفسه ٢/ ٢٨٠ و٥/ ٧١١.

(٧) المصدر نفسه ٢/ ٤٤٦ و٢/ ٤٤٩ و٤/ ٣٠ و٥/ ٧٩٧.

(٨) المصدر نفسه ٣/ ٥٤٢ و٤/ ٨٨ و٥/ ٦٤٦ و٥/ ٦١٢.

(٩) المصدر نفسه ٣/ ٢١ و٤/ ٨٨. (١٠) المصدر نفسه ٢/ ٣٨٠ و٤/ ٩٠.

(١١) المصدر نفسه ٤/ ٣٠ و٣/ ٤٣. (١٢) المصدر نفسه ٥/ ٦٠٢ و٥/ ٦٨٤ و٥/ ٦٨٥.

(١٣) المصدر نفسه ٤/ ١٣٢ و٥/ ٧٠٤. (١٤) المصدر نفسه ٥/ ٦٧٧

ـ مصنف وكيع[1].

ـ وأما المصادر الأخرى:

ـ ابن قدامة صاحب المغنى[2].

ـ ابن تيمية فى كتبه[3].

ـ جمال الدين الجذامى السعدى صاحب الجواهر[4].

ـ الرازى فى الكبير[5].

ـ ابن حبيب صاحب الواضحة[6].

ـ ابن هبيرة فى الافصاح[7].

ـ ابن عساكر فى (أطرافه)[8].

ـ أبو إسحاق فى المهذب[9].

ـ الخرقى فى مختصره[10].

ـ إسحاق بن هانىء فى مسائله[11].

ـ أبو الحجاج فى التهذيب[12].

ـ ابن القاسم فى المدونة[13].

---

(١) المصدر نفسه ٥/ ٦٠٢.

(٢) المصدر نفسه ٥/ ٧٠٤ و٥/ ٧٧٦ و٥/ ٨٠٦.

(٣) المصدر نفسه ٢/ ٨٨ و٣/ ٢٧ و٥/ ٦٠٦.

(٤) المصدر نفسه ٥/ ٧٢٥ و٥/ ٧٩٤.

(٥) المصدر نفسه ٤/ ٢٨.

(٦) المصدر نفسه ٥/ ١٨٦.

(٧) ابن القيم زاد المعاد ٥/ ٣٧٨.

(٨) المصدر نفسه ٥/ ٦٢٧.

(٩) المصدر نفسه ٥/ ٦٥٨.

(١٠) المصدر نفسه ٥/ ٧١٠.

(١١) المصدر نفسه ٥/ ٧١٠.

(١٢) المصدر نفس ه ٥/ ٧٢٢.

(١٣) المصدر نفسه ٥/ ٧٥٨.

- أبو البركات بن تيمية فى (محرره)[1].
- الإمام الشافعى فى (الأم)[2].
- ابن حزم[3].
- الجوهرى[4].
- ابن السنى[5].

(١) المصدر نفسه ٥/ ٧٧٦.
(٢) المصدر نفسه ٥/ ٦١٦ و٥/ ٦١٧ و٥/ ٦٢٧.
(٣) المصدر نفسه ٥/ ١٨٦.
(٤) المدر نفسه ٥/ ٦٠٨.
(٥) المصدر نفسه ٤/ ١١٣.

المبحث الخامس

ملاحظات نقدية وتقويمية

بالرغم مما بينت سابقاً من ثناء العلماء على ابن القيم وإجلاله وما وصفوه من صفات حق له أن يتمثل بها، إلا أن هذا الأمر لا يعنى أنه قد بلغ مقام العصمة، لأن العصمة لاتجوز إلا لنبى، وإن كل أحد يؤخذ منه ويرد عليه إلا رسول الله ﷺ، أما بقية الناس فيؤخذ منهم ويرد عليهم والإنسان يخطىء ويصيب. وأن ابن القيم بمقدار ما حظى من قبول، فقد تعرض لانتقادات كثيرة وهذا أمرطبيعى فكم من علماء سبقوه، قد نيل منهم، وتكلم الناس فيهم، وبما أن موضوع دراستنا يتعلق بابن القيم وزاده فقد رأيت من المناسب أن أتناول أولاً الملاحظات عن ابن القيم. وثانياً الملاحظات فى كتابه زاد المعاد.

وذلك ضمن مطلبين:

المطلب الأول
ابن القيم

لقد تفنن ابن القيم (رحمه الله تعالى) فى علوم شتى مما يدل على علو كعبة وطول باعه حتى نال مرتبة الاجتهاد المطلق، وهذه الحقيقة يقر بها من قرأ كتب ابن القيم واطلع على البعض من تلك المؤلفات التى مرت بنا، ولكن لكثرة تتبع ابن القيم لشيخة ابن تيمية وقوة تأثيره به حدى بالبعض أن يحكم على ابن القيم أنه نسخه من شيخه، وإذا ثبت هذا فإنما يدل على انصهار شخصية ابن القيم فى شخصية شيخه ابن تيمية وربما أن هذه القضية قد برزت ونشأت وترعرعت ونسبت إلى ابن القيم من خلال بعض مقالات الكوثرى، كما يقول الأستاذ بكر بن عبدالله أبو زيد[1] حيث

(١) انظر ابن القيم الجوزية، حياته وآثاره ص٨٤

نقل لنا مقالات الكوثرى فى كتبه قائلا: (ابن قيم الجوزية لم يكن غير شيخه فى المعنى، بل هما قماش واحد ذاك ظهارته، وهذا بطانته ذلك يسود وهذا يبيض، عمله جله تزويق بضائع شيخه بحيث تروج، يقلده فى كل شىء وليس له رأى خاص قطعا على سعته فى العلم[1] ويقول الكوثرى أيضا (ويجد القارىء فى كتابنا هذا الرد على ابن تيمية كما يجد فيه الرد على ابن القيم باعتبار أن الثانى إنما يردد صدى الأول فى أبحاثه كلها دون أن تكون له شخصية خاصة بل هو ظل الأول فى كل آرائه وجميع أهوائه)[2].

وهذا فيه من الإجحاف على ابن القيم لما تبين ويتبين خلاف ذلك وإنما القول الفصل ما قاله الإمام ابن حجر فى ابن القيم فقد بين أنه (جرىء الجنان واسع العلم عارفاً بالخلاف ومذاهب السلف وغلب عليه حب ابن تيمية حتى كان لا يخرج عن شىء من أقواله بل ينتصر له فى جميع ذلك وهو الذى هذب كتبه ونشر علمه)[3] ويقول أيضاً (وكل تصانيفه مرغوب فيها بين الطوائف وهو طويل النفس فيها، يعانى الإيضاح جهده فيسهب جداً، ومعظمها من كلام شيخه يتصرف فى ذلك، وله فى ذلك ملكة قوية ولا يزال يدندن حول مفرداته وينصرها ويحتج بها)[4] وهنا قد يعنى الإمام ابن حجر أن ابن القيم لشدة محبته لشيخه إنما ينتصر لأقواله ولكن عن دليل وقناعة، لا مجرد تبعية ولا هوى، وإنما هو السير مع الدليل والحق حيث سارا وهذا ما فسره الإمام الشوكانى عندما يعرض قول ابن حجر فيقول: (وليس له على غير الدليل معول فى الغالب وقد يميل نادرا إلى المذهب الذى نشأ عليه ولكنه لا يتجاسر على الدفع فى وجوه الأدلة بالمحامل الباردة كما يفعله غيره ثم يقول: (بل لابد له من مستند فى ذلك وغالب أبحاثه الإنصاف والميل مع الدليل حيث مال وعدم التأويل على القيل والقال)[5] والمطلع حقا فى كتب ابن القيم يجد أن ابن القيم قد خالف شيخه ابن تيمية فى مسائل عدة[6] على الرغم من محبته له واتباعه والسير نحو خطاه فى الحق الذى لا يتعدد.

---

(١) انظر الكوثرى صفحات البرهان ص٣٢ مطبعة الترقى بدمشق سنة ١٣٤٨ هـ.

(٢) انظر السبكى السيف الصقيل ص١٩٢ حاشية الكوثرى.

(٣) ابن حجر، الدرر الكامنة ٤/ ٢١. (٤) المصدر نفسه ٤/ ٢٢.

(٥) الشوكانى البدر الطائع ٢/ ١٤٤ ـ ١٤٥.

(٦) منها مسألة حج النبى ﷺ انظر ابن القيم زاد المعاد ١/ ١٧٧ ـ ١٩٦ ـ و١/ ٢٠٣ ـ ٢١٥ ومنها=

ومن الانتقادات التى وجهت إلى ابن القيم وجود التكرار الممل فى كتبه، إذ يبحث المسألة فى كتاب ثم يعيدها فى كتاب آخر، وهذا يعد من نتائج الاسهاب والتطويل، وقد تجاذب الدارسون له ذلك بالشرح والبيان فكانوا بين مادح وقادح، حتى انتهى الأمر عند أهل التحقيق على أن التكرار ما كان عن ذهول ولا حشو كلام وإنما هو عن دقة وحكمة لذلك ومثل هذا قد يكون فى كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فكم كان من تكرار أريد به التأكيد والزيادة فيه للغطسة والاعتبار ولتثبيت الإيمان وتقويته فى القلوب كما هو الحال فى تكرار قصص الماضين التى أوردها القرآن الكريم[1].

وكذلك وجه النقد على ابن القيم لإسهابه وتطويله لبعض المباحث التى يدور فيها، مما يجعل القارىء فى حيرة من أمره قد لايستطيع الخروج من مأزقه الذى وضعه فيه فيعيش فى خضم من الأقوال والأدلة التى يتعسر التغلب على البحث بسببها فلا يستطيع الضبط ولا الوصول إلى النتيجة المطلوبة بسبب هذا الاسهاب الممل.

وقد يضمحل هذا الاتهام عندما نجد أن أهل العلم قد أثنوا على هذا التطويل لأنهم رأوه أنه مناسب فى مكانه، لاسيما وأن ابن القيم قد صرح بهذا.

حيث يقول (ومن الجود بالعلم أن السائل إذا سألك عن مسألة استقصيت له جوابها جوابا شافيا، لايكون جوابك له بقدر ما تدفع به الضرورة كما كان يكتب بعضهم فى جواب مسألة (نعم) أو (لا) مقتصرا عليها[2].

وقد اعتبر ابن القيم أن هذا الاسهاب لا يتأتى لكل واحد، وإنما هو منه من الله عليه وهو يتحدث بنعم الله وفضله[3].

=الاشباه فى الأوانى إذا اشتبه ماء طاهر بنجس هل يتوضأ من ايها شاء أم لا. انظر ابن القيم اغاثة اللهفان ١/ ١٧٧ و٣/ ٢٥٧ ـ ٢٧٥.

(١) بكر أبو زيد ابن قيم الجوزية ٧٤ وما بعدها.

(٢) انظر ابن القيم، مدارج السالكين ٢/ ٢٩٣.

(٣) انظر ابن القيم، الروح/ ٩٣ طـ مصر سنة ١١٨٦هـ

المطلب الثانى
زاد المعاد

بينت ما كتب ابن القيم فى زاده واستعرضت هذا الكتاب الذى يندر أن يكتب مثله لما حوى من العلوم والحكم، وبينت أن ابن القيم كتب زاده هذا وهو فى حالة سفر. والسفر أولاً إنما هو قطعة من العذاب فكيف يكتب الشخص حالة عذابه إضافة إلى بعده عن أهله ووطنه، والمسافر عادة يفتقر إلى مصادره لكن مصادر ابن القيم فى صدره أنبأت عنها ما كتبه فى زاده، وأن هذه الأسباب هى موجبة لالتماس العذر له إذا ما زل قلمه أو سبق لسانه عن مسائل بسيطة وقليلة جداً إذا ما قورنت بعظمة كتابه وسعة صفحاته وقوة ذاكرته وضبطه وهو الذى بين كل تواضع واصفاً زاده بكلمات يسيرة ملتمسا العذر لقرائه قائلا (وهذه كلمات يسيرة لا يستغنى عن معرفتها من له أدنى همة إلى معرفة نبيه ﷺ وسيرته وهدية اقتضاها الخاطر المكدود على عجره وبجره (أى على ماعيبه ومساوئه) مع البضاعة المزجاة التى لا تنفتح لها أبواب السدد، ولا يتنافس فيها المتنافسون مع تعليقها فى حال السفر لا الإقامة، والقلب بكل واد منه شعبه، والهمة قد تفرقت شذر مذر، والكتاب مفقود، ومن يفتح باب العلم لمذاكرته معدوم غير موجود، فعود العلم النافع الكفيل بالسعادة قد أصبح ذاويا وربعه قد أوحش من أهله وعاد منهم خاليا، فلسان العالم قد ملىء بالغلول مضاربة لغلبة الجاهلين، وعادت موارد شفائه وهى معاطبة لكثرة المنحرفين والمحرفين فليس له معول إلا على الصبر الجميل، وماله ناصر ولا معين إلا الله وحده، وهو حسبنا ونعم الوكيل)[1].

وسأعرض بعض أوهامه أو مجانبته للصواب لاسيما فى رواياته التى يذكرها فى زاده دون مناقشة واسعة للأدلة والأراء[2] طمعا فى الاختصار على أن هذا لا ينقص من قيمته العلمية كما بينت.

---

(١) ابن القيم، زاد المعاد ١/ ٧٠.

(٢) مناقشة الأدلة والأراء تصلح أن تكون رسالة جامعية لوحدها، وأننى أدعوا أخوتى طلبة الدراسات=

ـ ذكر أن النبى ﷺ ربما كان يأتى أهله ثم ينام ولم يمس ماء وينقل هذا عن السيدة عائشة رضى الله عنها، ثم يطعن فى رواية الحديث ويقول (وهو غلط عند أئمة الحديث)[١] والحديث إسناده قوى رواه أبو داود[٢] فى الطهارة والترمذى[٣] فى الطهارة وابن ماجه[٤] فى الطهارة وله سند صحيح آخر أخرجه ابن حبان[٥] وأخرجه مسلم[٦] والامام أحمد وبهذا يتبين خطأ المصدر نفسه فى حكمه على الحديث.

ـ عند كلامه عن ضوء النبى ﷺ يذكر أنه كان يمسح رأسه تارة وعلى العمامة تارة وعلى الناصية والعمامة تارة. وينكر اقتصاره فى المسح على الناصية فيقول: (وأما اقتصاره على الناصية المجردة فلم يحفظ عنه[٧]. والصواب أنه قد حفظ عنه كما جاء فى فتح البارى[٨] بحديث مرسل، وجاء فى وجه آخر. أخرجه أبو داود[٩] موصلا وقد اعتضد المرسل والموصول بالأخر فحصلت القوة لذلك[١٠].

ـ أورد حديثا ضعيفا فى الالتفات فى الصلاة، وقد نسبه إلى البزار[١١] ولم ينسبه أحد إلى البزار وإنما هو منسوب فى رواية إلى الطبرانى والأخرى إلى الدارقطنى[١٢].

ـ وهو يتحدث عن دخول الحمام مبينا أن النبى ﷺ ما كان يدخل الحمام ثم قال: (ولم يصح فى الحمام حديث)[١٣] والصواب أنه قد ورد ثلاثة أحاديث صحيحة الأول أخرجه الحاكم[١٤] والثانى أخرجه الترمذى[١٥] والثالث أخرجه النسائى[١٦].

= العليا. الكتاب فى مثل هذا الموضوع وقديكون بعنوان (المناقشة العلمية لآراء ابن قيم الجوزية فى زاد المعاد).

(١) ابن القيم، زاد المعاد ١/ ١٥٤. (٢) انظر السنن (٢٨٨).
(٣) سنن الترمذى (١٨٨). (٤) ابن ماجه (٥٨٣).
(٥) ابن حبان (٢٣٢). (٦) مسلم فى صحيحه.
(٧) المصدر نفسه، زاد المعاد ١/ ١٩٤.
(٨) انظر ابن حجر العسقلانى فى فتح البارى ١/ ٣٠٤.
(٩) أبو داود فى السنن رقم (١٤٧). (١٠) المصدر نفسه، زاد المعاد ١/ ١٧٥
(١١) انظر الحاكم، فى المستدرك ٤/ ٢٨٨.
(١٢) المصدر نفسه، زاد المعاد ١/ ١٩٤ هامش شعيب الأرنؤوطى وعبدالقادر الأرنؤوط
(١٣) المصدر نفسه ١/ ٢٤٩. (١٤) ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد ٢ ٨٠
(١٥) الترمذى فى السنن ٢٨٠٢. (١٦) النسائى، فى السنن ١/ ١٩٨.

ـ وهو يتحدث عن نور المؤمن يروى حديثا ينسبه إلى الترمذى فى جامعه[1] وفى الحقيقة أن الحديث لم يروه الترمذى وإنما أخرجه الطبرى[2] وذكره السيوطى[3].

ـ ذكر أخبار الحج وبين أن النبى ﷺ عندما سار فى مزدلفة وهو فى طريقه فكان رديفه الفضل بن عباس فعرضت له امرأة جميلة من خثعم تسأله فأخذ الفضل ينظر إليها الحديث)[4] فذكر أن القصة حصلت عند سيره من مزدلفة وهوخطأ والصواب أن القصة ليست فى هذا المكان وإنما كانت يوم النحر وعند المنحر[5] فكان الحق أن يذكرها فى مكان الصواب.

ـ روى أن إسلام الجن كان مرجع النبى ﷺ من الطائف، وبهذا قد تابع ابن القيم رواية ابن إسحاق [6]. وفى هذا نظر، فإن إسلام الجن كان عند ابتداء البعثة قبل خروجه ﷺ إلى الطائف بسنتين[7].

ـ عند حديثه عن الحجامة أورد حديثا نسبه إلى الصحيحين، والحقيقة أن الحديث لم يخرجاه ولا أحدهما[8] وإنما أخرجه أحمد وأصحاب السنن عن أنس رضى الله عنه قال (كان رسول الله ﷺ يحتجم ثلاثا واحدة على كاهله واثنتين على الاخدعين[9].

ـ نسب كذلك إلى الصحيحين حديث وقوع الذباب فى الإناء [10]، والحق أن الحديث ورد عند البخارى[11] ولم يرد عند مسلم.

ـ نسب حديث اعتصار العنب إلى مسلم[12] والصواب أنه ليس كذلك وإنما رواه الإمام أحمد بلفظ (أن ذلك ليس بشفاء ولكنه داء)[13] وهكذا يتبين لنا بعض الملاحظات والتى لا تنقص قدر ابن القيم ولا قدر زاد المعاد.

(١) ابن القيم، زاد المعاد ٢/ ٢٤. (٢) الطبرى ٢/ ٢٧. (٣) السيوطى الدر المنثور ٣/ ٤٤.
(٤) ابن القيم، زاد المعاد ٢/ ٢٥٤، ٢٢٥، والحديث أخرجه البخارى ٣/ ٣٠٠، ومسلم (١٣٣٤).
(٥) انظر أحمد فى المسند ١/ ٧٦ و١٥٧ والترمذى (٨٨٦).
(٦) ابن القيم، زاد المعاد ٣/ ٣٢.
(٧) ابن كثير، فى التفسير ٤/ ١٦٢، والبخارى فى الصحيح ٨/ ٥١٣، ٥١٨ ومسلم فى الصحيح (٤٤٩).
(٨) ابن القيم، زاد المعاد ٤/ ٥٦.
(٩) أخرجه أحمد فى المسند ٣/ ١١٩ و١٩٢ والترمذى فى السنن (٢٠٥٢) وفى الشمائل المحمدية ٢/ ٢٢٣. وأبو داود (٣٨٦٠).
(١٠) ابن القيم، زاد المعاد ٤/ ١١١. (١١) أخرجه البخارى ١٠/ ٢١٣.
(١٢) ابن القيم، زاد المعاد ٤/ ١٥٥. (١٣) أخرجه أحمد فى المسند ٤/ ٣١١.